هوامش

في معرض «الأطفال السمر»، الذي يقيمه «المتحف المختلط»، نعود إلى بريطانيا العنصرية، التي منعت النساء البيض، إبّان الحرب العالمية الثانية، من الزواج بالجنود الملونين

جرى توثيق شهادات هؤلاء الأبناء الذين أصبحوا في السبعينيات من أعمارهم الآن (المتحف المختلط)

الأطفال السمر
أبناء الجنود المنبوذين

لندن ـ **كاتيا يوسف**

يساهم «المتحف المختلط» (The Mixed Museum) في توسيع معرفة تاريخ الأقليات العرقية والسود في بريطانيا، ويسلّط الضوء على جوانب قاتمة تمّ تجاهلها، أو إبقاؤها طي الكتمان، في زمن ناضلت هذه الأعراق فيه دفاعاً عن بريطانيا، بينما أصدرت الأخيرة قرارات في غاية السرية، تحطّ من قدر الملونين، وتعترف بفوقية العرق الأبيض. «المتحف المختلط» هو أرشيف رقمي يمكن العثور فيه على لمحة عامة عن تاريخ الاختلاط العرقي في بريطانيا منذ عام 1900 وما بعده، وهو يسعى إلى توسيع المخطط الزمني، ليشمل فترات زمنية سابقة.

من المعارض الأحدث لـ «المتحف المختلط» معرض «الأطفال السمر» Brown Babies الذي يستضيفه بدءاً يناير/ كانون الثاني الجاري، ويقدّم فيه الأحداث المغمورة للزيجات مختلطة الأعراق والعائلات في بريطانيا، خلال القرنين العشرين والحادي والعشرين. نتلمّس في المعرض أنّ الاختلاط السكاني بين الأعراق كان محدوداً في السنوات الأولى من القرن العشرين في بريطانيا، وكان يقتصر بشكل أساسي على الضواحي الصغيرة في مدن الموانئ في لندن (مثل إيست إند لايمهاوس) وكارديف. وأنّ التقارير الإعلامية ركّزت فقط على الأزواج متعددي الأعراق من المشاهير والأثرياء. جاءت الحرب العالمية الأولى لتقلب الأمور رأساً على عقب، حيث تم تجنيد رجال من المستعمرات البريطانية في الخدمة، من أصحاب البشرة السوداء، وتسريح أعداد كبيرة منهم في نهاية الحرب. الأمر الذي أدّى إلى ازدياد فرص الزواج بين البيض والسود، وبداية ظهور المجتمعات المختلطة في المدن الساحلية البريطانية، ولا سيما في كارديف/ ويلز.

يظهر الخط الزمني للمعرض أنّه يمكن وصف العشرين عاماً التالية (من 1920 ولغاية عام 1940) بعصر الإدانة الأخلاقية للأزواج من أعراق مختلفة ولأطفالهم. بدأت هذه العقوبات تظهر بشكل «بيان تحذير لمسجلي الزيجات» بين أعراق مختلفة. وصدر أمر خاص بشأن البحارة الأجانب الملوّنين، يفرض قيوداً على زواجهم من النساء البيض. نُشرت الكثير من التقارير الأولى عن أطفال «العرق المختلط»، من قبل علماء الأنثروبولوجيا البريطانيين، بناءً على القياسات الفيزيائية التفصيلية، في مجلة «جمعية علم تحسين النسل». بيد أنّ المجلة التزمت بموقف محايد، خوفاً من العواقب البيولوجية لما كان يسمى بـ «عبور العرق».

ولا يزال تقرير «فليتشر» سيئ السمعة لعام 1930، الذي وصف الأزواج المختلطين في ليفربول وأبناءهم بلغة عنصرية وتحريضية، حاضراً في تاريخ العنصرية، حيث لُمّح فيه إلى «بيوت الدعارة» و«الفوضى» و«عدم الشرعية» و«الأمراض المُعدية»، ووصف الزواج المختلط بين الأعراق بغير الأخلاقي. وفي يناير 1942، بعد دخول الولايات المتحدة الحرب، تم نقل عدد كبير من الجنود الأميركيين إلى بريطانيا. على مدى السنوات الثلاث التالية، مر ما يقرب من ثلاثة ملايين جندي عبر البلاد، 8 بالمائة منهم أميركيون من أصول أفريقية. ومنذ اللحظة التي علمت فيها الحكومة البريطانية أن القوات الأميركية ستصل، كان هناك قلق في الدوائر الرسمية بشأن عواقب وجود الجنود السود. أحدها كان الخوف من احتمال علاقات مختلطة الأعراق وإنجاب أطفال ملونين. كما كان وزير الداخلية، هربرت موريسون، قلقاً من خلق مشكلة اجتماعية صعبة في حال إنجاب أطفال من زواج عرقي.

ولتفادي ولادة هؤلاء الأطفال، حرصت الحكومة على تثبيط الاختلاط بين الجنود السود والنساء المحليات. واقترحت أنّه لا يجوز أن ترتبط المرأة البيضاء بالرجال الملونين، كما قرّرت منعها من الخروج أو الرقص أو الشرب معهم. بيد أنّ هذه الاقتراحات الحكومية وغيرها بقيت مكتوبة بالحبر الأحمر تحت عنوان «الأكثر سرية». ويعود هذا التكتم عليها في المقام الأول إلى القلق من أن مواءمة السياسات الأميركية للفصل العنصري من شأنها أن تسبب الغضب في جميع أنحاء المستعمرات البريطانية آنذاك، حيث كان الملايين من الرجال والنساء الآسيويين والسود يقاتلون نيابة عن بريطانيا. وأصدر مكتب الحرب مرسوماً يقضي بضرورة قيام الجيش البريطاني بإلقاء محاضرات على قواته، بما في ذلك نساء الخدمة الإقليمية المساعدة، حول الحاجة إلى المحافظة على حد أدنى من التواصل مع الجنود السود.

كل ذلك لم يمنع النساء البريطانيات من إقامة علاقات مع الجنود السود، لكنهن واجهن وابلاً من الانتقادات. وبحلول أكتوبر 1943، كانت وحدة الاستخبارات المنزلية تشير إلى قلق الناس المتزايد بشأن «العدد المتزايد من الأطفال غير الشرعيين، من العديد من الرجال الملونين». تشير التقديرات إلى أن ما يقرب من ألفي «طفل أسمر» ولدوا في بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية، وكانوا جميعهم تقريباً «غير شرعيين». («الأطفال السمر» هو المصطلح الذي أعطته الصحافة الأميركية الأفريقية لهؤلاء الأطفال).

وكان ينبغي على كل جندي أميركي أن يحصل على إذن للزواج من ضابطه (كانوا جميعهم تقريباً من البيض في المملكة المتحدة). وكان يعتبر تفادي طلب هذا الإذن بمثابة جريمة عسكرية. مع العلم أنّه تمّ رفض هذا الإذن بشكل دائم ولم يسمح لجندي أسود الزواج من بريطانية بيضاء. وفقاً للجندي الأسود السابق أورموس دافنبورت، الذي كتب بعد الحرب، فإنّ الجيش الأميركي أبرم «اتفاق الرجل نبيل» بشكل غير رسمي، ليصبح سياسة رسمية في الممارسة الفعلية. ونصت الاتفاقية على أنه «لن يُسمح لأي جندي أو بحار زنجي بالزواج من أي فتاة بريطانية بيضاء! (...) لا توجد عروس واحدة تعود إلى الولايات المتحدة بموجب مخطط الحكومة الأميركية وهي زوجة لزنجي».

تم تسليم ما يقرب من نصف «الأطفال السمر» إلى السلطات المحلية أو دور الأطفال، وكانت الأمهات يواجهن وصمة عار تتمثّل في إنجاب طفل غير شرعي و«ملون». والحقيقة أن ما بين ثلث أو نصف الأمهات كنّ متزوجات بالفعل. أملت الأمهات اللواتي أرغمن على التخلي عن أطفالهن أن يتم تبنيهم. لكن مجتمعات التبني كانت تكره قبول أطفال سود أو مختلطي الأعراق. بيد أنّ الزائرة الصحية المشرفة على سومرست، سيليا بانغام، كانت حريصة على ترتيب تبنيهم من قبل آبائهم المفترضين، بالقرب من الأقارب أو العائلات «الملونة» الأخرى في الولايات المتحدة.

يروي المعرض أنّه في 13 ديسمبر 1945، التقى وزير الداخلية، جيمس تشوتر إيدي، مع الآنسة بانغهام وفيكتور كولينز، النائب عن تونتون، لمناقشة إمكانية التبني في الولايات المتحدة. وأوضح الموقف القانوني بشأن التبني: بموجب القانون البريطاني (قانون التبني لعام 1939)، يُسمح للأطفال فقط بالانتقال إلى الخارج للعيش مع رعايا بريطانيين أو مع أقاربهم. وهكذا تم استبعاد الأزواج الأميركيين من أصل أفريقي الذين تقدموا للتبني، وبما أنهم كانوا يُعتبرون آباء «مفترضين» فقط (لم يكن هناك اختبار الحمض النووي للأبوة حتى الستينيات)، لم يتم اعتبار الجنود السود أقارب لهم. وساعدت وثائق الأرشيف الوطني على تجميع هذا الجزء من التاريخ، الذي تم تجاهله في التجربة البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية. من أجل فهم التاريخ الأكثر ثراءً، أجرت الأستاذة لوسي بلاند، وهي أستاذة بريطانية للتاريخ الاجتماعي والثقافي بجامعة أنجليا روسكين، مقابلات مع العديد من هؤلاء الأطفال، وهم الآن في السبعينيات من عمرهم. تكشف الروايات عن الطرق التي عانى بها الكثير من الأطفال وأمهاتهم وآبائهم وأسرهم الممتدة من عواقب شخصية وعائلية وعاطفية طويلة الأمد بسبب الطريقة التي كان ينظر بها إلى علاقاتهم وهوياتهم المختلطة الأعراق من قبل المحيطين بهم.

باختصار

جاءت الحرب العالمية الأولى ليتم تجنيد رجال من المستعمرات البريطانية في الخدمة، من أصحاب البشرة السوداء.

■■■

وصف تقرير «فليتشر» سيئ السمعة لعام 1930 الأزواج المختلطين في ليفربول وأبناءهم بلغة عنصرية وتحريضية.

■■■

تشير التقديرات إلى أن ما يقرب من ألفي «طفل أسمر» ولدوا في بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية، وكانوا جميعهم تقريباً «غير شرعيين».

وأخيراً

مع «بطريرك الشعب..»

معن البياري

كان بديعاً أن نسمع من البطريرك ميشيل صباح، أن على كل فلسطينيٍّ أن يحمل فلسطين فوق ظهره، وأن على الفلسطينيين، على الرغم من كل شيء، أن يتحلّوا بالأمل.. قال هذا لنا، نحن من كنا بصحبته، كثيرين من جمهور عام في «زووم»، تجاوبوا مع دعوة رائقة إلى جلسةٍ (أو فعالية؟) نظّمها «ملتقى فلسطين»، لمشاهدة فيلم «بطريرك الشعب.. محطات مع البطريرك ميشيل صباح»، مع مخرجه محمد العطّار، ومنتجته ليلى حبش، فكانت فرصةً ثمينةً للتناجي مع صاحب الغبطة، ليس فقط عمّا كانه وأدّاه، وعما رأيناه في الفيلم معه وعنه، وإنما أيضاً عن راهنٍ فلسطينيٍّ ركيك، وعن أحوالٍ عامةٍ رديئةٍ، وعما يمكن أن يصنعه كل واحدٍ منا، وعن من في العالم معنا، نحن الفلسطينيين والعرب، وعن من ليس معنا، ومفيدٌ، بل لازمٌ، أن نصل إليه، ليسمع سرديّتنا، ليعرف عن ظلم يحدث في فلسطين، واحتلال عنصري وقاتلٍ فيها.

كانت فرصةً أن نسمع بطريرك القدس السابق لللاتين، الأب الإنسان، يقول، في فيلمٍ متقن، مشهدياً وصورة ومضموناً، إيقاعاً ورسالةً، إن «في القدس، مدينتنا ومدينتك المقدّسة، ما زالت الخطايا تملأها، والحرب، والموت والكراهية.. اللهم بدّل كل هذا، وأعد القداسة إلى مدينتك، واملأها بحبك.. آمين». وأيضاً «القدس اليوم ليست مدينةً مقدّسة، بل مدينة كراهية».

صوت البطريرك القائد الشجاع الذي حاول المحتلّون إبعاده، وطالما ضيّقوا عليه. نسمعه يقول هذا، فيما المشهد قدّامنا في فيلم محمد العطار عناصر من جنود الاحتلال يمنعون الناس من التوجّه إلى القدس ومساجدها وكنائسها، ويعاملونهم بغلظة وقسوة.

تنوّعت أسئلة الحضور ومداخلاتهم، كلٌّ من بلد، لم يجمعهم «زووم»، وإنما الإجلال الغزير الذي يمحضونه لقائد وطني فلسطيني، لا يحسب نفسه رجلاً محارباً، وإنما رجل صلاة، يؤمن بأن أبناء وطنه يجب أن يكونوا يوماً أسياداً، على ما يقول في الفيلم القصير (27 دقيقة)، الوفير المعاني والمضامين. وبإدارة الكاتب والباحث، خالد الحروب، الحوار والنقاش، والدردشة والتباسط، مع أبونا والمخرج والمنتجة، أمكن أن نُحرز مكسباً خاصاً، موجزه أن في الوسع أن يفعل الفلسطينيون الكثير من النافع والمجدي، بدلاً من لعن الشعور بالفشل الذي صار متوطّناً فيهم. مثلاً، أن ينجز الموهوبون، وأصحاب الكفاءة الفنية، أفلاماً ومنتجاتٍ بصريةً، في منزلة ما يفعله محمد العطار، وأن يتقدّم مخلصون من أهل القدرة بمبادراتٍ كالتي تؤدّيها ليلى حبش، من قبيل الاحتفاء بميشيل صباح، وتعريف أجيال الفلسطينيين بنضاله وفكره في إنتاج فيلم وثائقي سينمائي، قويّ في مشهدياته ومنطوقه. وكذلك أن يقاوم مثقفون فلسطينيون، تقدّميون ديمقراطيون، الإحباط الشنيع الذي يطوّق المشهد العام، بتكوين تجمّع حر من طراز «ملتقى فلسطين»، تجتمع نخبتُه على الإيمان بالتعدّدية، وبمشروع وطنيٍّ فلسطينيٍّ ينهض على تثمير المشتركات والجوامع الوطنية وما أكثرها. وعندما يختار، من أنشطته المنتظمة والمتنوعة جلسةً جذابةً، كالتي كانت الاثنين الماضي، مع فلسطينيٍّ استثنائي من قماشة ميشيل صباح، ومشاهدة عمل سينمائي عنه، فإن ضُمّةً ملمومةً من جزيل التقدير والشكر تصير مستحقةً له.

> يقول ميشيل صباح إنه «رجل دين مسيحي، ومسؤول عن رعية، ومسؤولية الراعي المسيحي شاملة للإنسان»

يقول أستاذ اللغة العربية، وأحد فقهائها، الدكتور ميشيل صباح (87 عاماً)، في الفيلم إنه «رجل دين مسيحي، ومسؤول عن رعية، ومسؤولية الراعي المسيحي شاملة للإنسان. هناك وضع ظلم واحتلال، وهذا يعني أنني مسؤول». تسمع هذا وغيره كثير مما يفيض سماحة وثقة وعلواً وطنياً، فيما أصوات أجراس الكنائس وترانيم المصلين وأنغام دينية وعيناك مشدودتان إلى القدس وأسلاك شائكة وجنود صهاينة موتورين، فيما مقاطع من سيرة البطريرك تتوالى موثقة، منذ ما قبل تنصيب بابا الفاتيكان له في 1987، إبان احتدام انتفاضة فلسطينية كبرى، ليكون أول بطريرك فلسطيني في القدس، إلى لحظة راهنة، لما كان يقول البطريرك يقول ما يقول، وقدام ناظريه كثير من القدس وفلسطين، في غضون كورونا وفيروس الاحتلال البغيض. شكراً ملتقى فلسطين، شكراً ليلى حبش، شكراً محمد العطار، شكراً أبونا.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**